من حديث النفس في القرآن

حينما تتعرض الأمم والشعوب للنكبات تزلزلها وتبلبلها ، يكون من الواجب على أفرادها أن يعودوا إلى أنفسهم ، ليتبينوا مواضع أقدامهم ، ومواقع خطواتهم ، لأنهم يكونون حينئذ في أشد الحاجة إلى عملية تجديد أو بناء جديد ، حتى تعود نفوسهم لبناتٍ صالحةً لإقامة صرح الأمة المشيد .

ولذلك يقول الحق جل جلاله في سورة الرعد : « إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بقَوْمٍ حتَّى يُغيِّروا ما بأَنْفُسِهم » (الآية ١١) ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « عليك بنفسك » .

ولو رجعنا إلى كتاب ربنا « القرآن الكريم » لوجدناه يحدثنا عن خمسة أنواع من النفوس ؛ فهو يحدثنا عن النفس الأمارة بالسوء ، والنفس المسوِّلة للشر ، والنفس الموسوسة بالإثم ، والنفس اللوَّامة على التقصير ، والنفس المطمئنة بالرضى واليقين .

والنفس الأمارة بالسوء هي التي تدعو صاحبها إلى ارتكاب الذنوب والسيئات ، وتحرضه على الانحراف والفجور ، وتدفع به إلى مهاوي الضلال والخبال ، لأن كلمة « أمَّارة » صيغة مبالغة من الأمر ، وفيها يقول التنزيل

الحكيم فى سورة يوسف : « وما أُبَرِّئُ نَفْسِى إنَّ النَّفْس لأَمَّارةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رَحِمَ ربِّى » . (الآية ٥٣)

ويقول الإمام الرازى : « اختلف الحكماء فى أن النفس الأمارة بالسوء ما هى ؟ . والمحققون قالوا : إن النفس الإنسانية شىء واحد ، ولها صفات كثيرة ، فإذا مالت إلى العالم الإلهى كانت نفساً مطمئنة ، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء . وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة ، والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات ، والتذت بها ، وعشقتها ، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه ، فذلك لا يحصل إلا نادراً فى حق الواحد فالواحد ، وذلك الواحد ، إنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره فى الأوقات النادرة . فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسدانى ، وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادراً ، لاجرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء ، ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة النطقية ، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية » .

وحدثنا القرآن الكريم عن النفس المسوِّلة ، وهى النفس التى تزيِّن القبيح ، فتعرضه فى صورة الجميل ، وتسوِّغ أهواءها بمكر وبراعة ، فترسم الشر وكأنه خير ، وتقيم الدليل بعد الدليل – من وهمها وزعمها – على أن شهواتها معقولة مقبولة . وجاء هذا المعنى من أنه يقال : سولت له نفسه كذا تسويلا : أى زينته وحببته إليه ليفعله . وسوَّل فلان لفلان كذا : أى زينه وحببه إليه ليفعله .

وفى هذه النفس يقول القرآن المجيد فى سورة يوسف : « قال بَلْ سَوَّلَت لكُمْ أنْفُسُكمْ أمراً فصبرٌ جَميلٌ ، واللهُ المسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفُونَ » . (الآية ١٨) أى زينت لكم أنفسكم أمراً ، من التسويل وهو تقدير معنى فى النفس

مع الطمع فى إتمامه ، وكأنه أمنية للنفس تطلبها فيزينها الشيطان لها . ويقول أيضاً فى سورة يوسف : « قالَ بلْ سَوَّلَتْ لكُمْ أنفسُكُم أمراً فصبرٌ جميلٌ ، عَسَى اللهُ أنْ يأتينى بِهِم جَمِيعاً ، إنَّه هُو العَلِيمُ الحَكيم » (الآية ٨٣) . ويقول فى سورة طه : « وكذلِكَ سَوَّلَتْ لى نَفْسى » . (الآية ٩٦) . ويقول فى سورة محمد : « إنَّ الَّذِين ارْتَدُّوا عَلَى أدبارِهِمْ مِنْ بعْدِ ما تبيَّن لَهُم الهُدَى الشَّيْطانُ سوَّل لَهُمْ وأمْلَى لَهُمْ » . (الآية ٢٥)

وحدثنا الكتاب المجيد عن النفس الموسوسة ، وهى التى تهمس إلى صاحبها بالصوت الخفى الذى لا يكاد يُسمع من الأعماق ، لتذكره بخواطر الإثم ومشاعر المنكر ، لأن الوسوسة فى الأصل هى الصوت الخفى ، ويقال لحديث النفس : وسوسة ، وهو ما يخطر بالبال ، ويهجُس بالضمير ، والوسواس هو الشيطان الذى يوسوس لغيره ، ولهذا جاء قول الله تعالى فى سورة الناس ، « قُلْ أعُوذُ بربِّ النَّاسِ ، مَلِك النَّاسِ ، إلٰهِ النَّاسِ ، مِنْ شرِّ الوَسْواسِ الخَنَّاسِ ، الَّذِى يُوسْوِسُ فى صُدورِ النَّاسِ ، مِنَ الجِنَّـــة والنَّاسِ » .

وفى النفس الموسوسة يقول القرآن المجيد فى سورة ق : « ولَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ونحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيد » . (الآية ١٦) وقد أشار القرآن إلى موقف المؤمنين المتقين إذا عرض لهم الشيطان بشىء من وسوسته ، فقال فى سورة الأعراف : « إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُم طائفٌ مِن الشيطانِ تذكَّروا فإذَا هُمْ مُبْصِرُون » . (الآية ٢٠١)

ويتحدث « تفسير المنار » عن معنى الآية الكريمة ، فيذكر أن هؤلاء المتقين — وهم خيار المؤمنين — إذا ألَمَّ بهم طائف من الشيطان ليحملهم بوسوسته على المعصية ، تذكروا أن هذا من عدوهم الشيطان ومن إغوائه .

obeikandi.com

واستعاذوا بالله ، فإذا هم أهل بصيرة تريأ بأنفسهم أن تطيع الشيطان ، فوسوسته إنما تؤثر فى الغافلين عن أنفسهم ، الذين لا يحاسبونها على خواطرها ، الغافلين عن ربهم لا يراقبونه فى أهوائها وأعمالها . ولا شيء أقوى على طرد الشيطان وإفساد وسوسته من ذكر الله تعالى بالقلب ، ومراقبته فى السر والجهر ، فذكر الله تعالى بأى نوع من أنواعه يقوى فى النفس حبَّ الحق ودواعى الخير ، ويضعف فيها الميل إلى الباطل والشر ، حتى لا يكون للشيطان مدخل إليها ، وهو إنما يزيِّن لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأى نوع منهما ، فإن وجد بالغفلة مدخلا إلى قلب المؤمن التقى لا يلبث أن يشعر به ، لأنه غريب عن نفسه ، ومتى شعر ذكر فأبصر ، فخنس الشيطان وابتعد عنه ، وإن أصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب .

ومثل المؤمن المتقى المتجنب لوسوسة الشيطان كمثل المرء الصحيح المزاج ، القوى الجسم ، النظيف الثوب والبدن والمكان ، لا تجد ميكروبات الأمراض المفسدة للصحة استعداداً لإفساد مزاجه ، وإصابته بالأمراض ، فهى تظل بعيدة عنه ، فإن مسه شيء منها بدخوله فى معدته أو دمه ، فتكت بها قُوى الصحة والعافية ، فحالت دون فتكها به وهذا ما يسمى فى عرف الطب بالمناعة أو الحصانة أو المقاومة .

وكذلك يكون قوى الروح بالإيمان والتقوى ، غير مستعد لتأثير وسوسة الشيطان فى نفسه ، فهو يطوف بها يراقب غفلتها ، وعروض بعض الأهواء النفسية لها ، من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، فيقاومها ويدفعها عنهـــا . . .

* * *

وحدثنا القرآن المجيد عن النفس اللوامة ، وأهل اللغة يقولون إن اللوَّام

صيغة مبالغة فى لائم ، فهو من يشتد فى لومه ، أو من يكثر اللوم ، وهى لوامة ، والنفس اللوامة هى التى تلوم صاحبها لوماً شديداً على ارتكاب الشر ، أو التقصير فى عمل الخير ، وربما تكون هى « الضمير » بحسب التعبير المعاصر .

وفى اللوم معنى المؤاخذة والتأنيب ، وفى هذه النفس يقول القرآن الكريم فى سورة القيامة : « ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَة » (الآية ٢) . وقال أهل التفسير إنها النفس التى تلوم صاحبها لوماً شديداً موصولا ، على ارتكابه السيئ أو تقصيره فى العمل الطيب ، وتندم على ما فات ، وتحاسب عليه .

والإمام الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : « إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قدماً لا يحاسب نفسه » .

فالنفس اللوامة إذن نفس متيقظة حذرة خائفة ، تتلفت حولها ، وتتدبر أمرها ، وتسائل ذاتها بين الحين والحين : أين أنا من الطريق ؟

ولقد تحدث « تفسير المنار » عن قوله تعالى : « ولقد هَمَّتْ بِهِ وهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أنْ رَأَى بُرْهانَ رَبِّه » (يوسف الآية ٢٤) . وتعرض لموقف الإنسان من ترك المعصية فقال : « هاهنا مرتبتان : إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس ، وكبحاً لها خوفاً من الله تعالى ، وهى مرتبة الصالحين الأبرار ، ومرتبة الكراهة لها والاشمئزاز منها ، حياء من الله ومراقبة له واستغراقاً فى شهوده ، وهى مرتبة الصديقين والنبيين الأخيار ، الذين إذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع بالصورة المحرمة فى الشرع ، عارضها من وجدان الإيمان ، وتجلى الرحمن ، ما تغلب به روحانيتهم الملكية ، على طبيعتهم الحيوانية ، وهذا قد يحصل لمن دون الأنبياء منهم ، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين

قلوبهم ، وينعكس نوره عن بصائرهم فيلوح لأبصارهم . . .

ولهذه المرتبة درجات ، منها فقد الشهوة الطبيعية فى هذه الحال ، أو فقد الشعور بالقدرة على وضعها فى الموضع المحرم مع وجودها على أشدها ، ولا عجب فقوى النفس وانفعالاتها الوجدانية تتنازع ، فتغلب أقواها أضعفها ، حتى إن من الإباحيين والإباحيات من أهل الحرية الطبيعية من يملك فى مثل تلك الخلوة منع نفسه أن يبيحها لمن يراوده عنها ، لا خوفاً من الله ولا حياء منه ، لأنه غير مؤمن به أو بعقابه ، بل وفاء لزوج أو عشيق عاهده على الاختصاص به فصدقه » .

° ° °

ثم تأتى النفس المطمئنة . . . تأتى فى الذروة وعلى القمة ، والطمأنينة هى السكون وعدم الانزعاج ، واليقين بلا ارتياب ، والرسوخ بلا اضطراب ، لأنها نفس آمنت بالله ، واعتصمت بحبل الله ، ولجأت إلى حمى الله ، ومن كان كذلك فقد استوى على صراط مستقيم : « الَّذِينَ آمَنُوا وتطْمَئِنُّ قُلُوبُهم بِذِكْرِ اللهِ ، ألاَ بِذِكْرِ اللهِ تطمئن القلُوب » (الرعد الآية ٢٨) .

وهذه النفس المطمئنة المؤمنة الموقنة ، الراضية بالله ، والراضية عن الله ، يناديها ربها أكرم نداء ، ويدعوها ألطف دعاء ، ويستقدمها إلى أعظم أمل وأحلى رجاء ، فيقول لها فى سورة الفجر : « يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ ، ارْجعى إلَى رَبِّكِ راضِيةً مَرْضِيَّةً ، فادْخُلِى فِى عِبادِى وادْخُلِى جَنَّتِى » ! ! . . (الآيتان ٢٧ – ٣٠) .

ومتى يناديها ربها هذا النداء الحلو الجميل النبيل ؟ .

إنه يناديها به عند الهول الأكبر ، وفى موقف الكرب الأعظم ، ومن ثنايا الرعب المزلزل ، الذى يصوره صوت الحق جل جلاله بقوله

قبل الآيات السابقة : « كلاً إذا دُكَّت الأرْضُ دكًّا دكًّا ، وجاء ربُّكَ والملَكُ صَفا صَفًّا ، وجيء يوْمئذٍ بجَهنَّمَ ، يومئذٍ يتذكَّرُ الإنْسانُ ، وأنَّى لَهُ الذِّكْرى ، يقُول : يا ليْتَني قدَّمْتُ لحياتى ، فيوْمئِذٍ لا يُعَذِّبُ عذابه أحدٌ ، ولا يُوثِقُ وثاقَه أحَدٌ » . (الآيات ٢١ - ٢٦)

ومن خلال تلك الأهوال الثقال ينبعث ذلك الصوت الإلهى الرحيم العظيم ، يردد على مسمع النفس الواثقة بربها ، المعتزة بدينها ، الحريصة على قيمها ، الراضية بقدَرِها . يَـٰأَيَّتُهَا النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى » ! ! . .

° ° °

هذه خمسة أصناف من النفوس ، ذكرها القرآن كتاب الحق ودستور الصدق ، وكل صنف منها له طعم وله مذاق. ولا شك أن شرهذه النفوس كلها هى تلك النفس الأمارة بالسوء الداعية إلى الضلال ، المحرضة لصاحبها على الانحراف والاعتساف ، ولا شك أن خير هذه النفوس هى النفس المطمئنة الموقنة ، الثابتة الراضية . وبينهما مراحل ومنازل ودرجات ، فالإنسان الغافل الضال حينما تدركه الرحمة بعد طول شقاء ، ينازع نفسه ويقاومها ، ليقتلعها من منبت السوء إلى منبت الخير قدر طاقته ، فهو ينقلها من منزلة الأمر بالسوء - مثلا - إلى أخف منها ، وهى منزلة التسويل بالشر ، ثم يعود فينقلها إلى منزلة أخف ، وهى منزلة الوسوسة بالإثم ، ثم يعود فيزكى هذه النفس ، ويوقظ فيها صوت الضمير ، فإذا هى نفس لوامة ، تفكر وتدبر ، وتعتبر فتنزجر ، ثم تبلغ القمة ، فإذا هى النفس المطمئنة التى لا تزلزلها الأهوال ، ولا الشدائد الثقال ، بل تأخذ لها مثلها الأعلى من الإنسان الكامل الذى ثبت فى أحرج المواقف ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كان ومعه

أبو بكر فى الغار ، فذلك حيث يقول القرآن المجيد فى سورة التوبة : « إلاَّ تَنْصُروهُ فقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إذْ أخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ، إذْ هُمَا فِى الغارِ ، إذْ يَقُولُ لصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وأيَّدَهُ بِجُنودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا ، واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . (الآية ٤٠) .

هذه نفوس خمس : نفس أمارة بالسوء ، ونفس مسوِّلة للشر ، ونفس موسوسة بالإثم ، ونفس لوامة على التقصير ، ونفس مطمئنة برضوان الله العلى القدير ، فليت كل واحد منا يسأل ذاته : أين نفسى بين تلك النفوس ؟ وفى أى طريق تسير ؟ . . أهى فى المقدمة أم فى المؤخرة ؟ . أهى تعلو أم تسفل ؟ . أهى صالحة للاستقامة أم أنها فقدت الأمل والرجاء ؟ . .

لقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يضرب القدوة فى الحرص على إصلاح النفس ، فيدعو ربه قائلاً : « اللهم اجعل فى نفسى نوراً » . ويستعيذ بالله من انحراف النفس ، فيقول : « اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا » . ويقول : « اللهم إنى أعوذ بك من نفس لا تشبع » !

فإذا كان هذا هو شأن رحمة الله للعالمين ، فما يكون شأن الراتعين فى الضلال المبين ؟ .

« عليكم أنفسكم » . هذا صوت القرآن ، وهذا ميدان جهاد لا يحتاج إلى جيش أو طائرات أو دبابات ، ولكنه يحتاج إلى همة وعزيمة ، ولابد لنا من معركة مع أنفسنا ، لنصلح للقيام بمعركة مع أعدائنا ، ولنتذكر على الدوام قول ربنا : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ، وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أنَّ بَيْنَها وبَيْنَهُ أمداً بَعِيداً ، ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، واللهُ رَءُوفٌ بالعِبَادِ » . (آل عمران الآية ٣٠) .